مجلة الآداب
العلوم الاجتماعية

الأبعاد التراثية للبطل
في رواية الحوات والقصر للطاهر وطار

ملخص:

يتناول هذا البحث الأبعاد التراثية للبطل في رواية «الحوات والقصر» للطاهر وطار، من خلال البحث في العنصر الأسطوري في شخصية بطل الرواية «علي الحوات».

إن عنصر البطولة يتجلى في الصفات الخارقة للبطل، بحيث يتغلب على المصاعب التي تعترضه، كما وظف كاتب الرواية التراث الديني ليمنح هذه الشخصية صفات إضافية تجعله يتجاوز حدود الزمان والمكان.

أ. عبد الحليم منصوري
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار – عنابة

Résumé:

Le présent sujet traite les dimensions patrimoniales du héro dans le roman «El Hawat wal Kaser» de son auteur Tahar Watar, à travers la recherche du légendaire, l'élément du personnage de son héro «Ali El Hawat».

L'élément héroïque se manifeste par les caractères extraordinaires du héro, du fait qu'il franchit les difficultés qu'il rencontre. L'auteur du roman a exploité le patrimoine religieux pour donner à ce personnage des caractéristiques supplémentaires qui le rendent capable de se débarrasser des contraintes du temps et de l'espace.

توطئة:

يمثل البطل – من المنظور النفسي التحليلي – أنموذجا أعلى للذات الإنسانية. فهو يعتبر المثل الأعلى للاوعي الجمعي[1]، الذي يجد في أساطير الأبطال وحكاياتهم إسقاطات وتعويضات لهزات اجتماعية عنيفة، تم كبتها في عمق هذا اللاوعي، ثم يتشخص هذا اللاوعي الجمعي في صور الأبطال. فعبرت هذه الصور – لا شعوريا – عن آمال المجتمعات وآلامها من خلال ما أضفى على هذه الشخصيات والأبطال من تعظيم وتهويل، وما نسجت حولهم من خرافات وقصص بفعل التداول الشفوي لأخبارهم وسيرهم عبر المسار التاريخي لتلك المجتمعات.

أولا – التراث الأسطوري :

جسدت أسطورة أوزوريس الصراع الأزلي بين الخير والشر، إذ كان أوزوريس إله الخصب والنماء، يجسد الخير، بينما جسد شقيقه "ست" – الإله المستغل، الجشع، الذي يطمح إلى السيطرة بكل الوسائل غير الأخلاقية – الشر، واستغل تسامح أوزوريس للكيد له، إذ تمكن في الأخير من تقطيع جسده إربا إربا، وإلقاء أشلائه في كل أقاليم مصر[2].

ويرى كمال الحناوي أن «أشهر الأساطير المصرية القديمة، أسطورة إيزيس وأوزوريس أو قصة الصراع بين الخير والشر، وهي قصة خالدة باقية، تتكرر في كل دين وتتخلل كل عقيدة»[3].

ويتجلى هذا العنصر الأسطوري في رواية "الحوات والقصر" في تيمة الخير والشر، التي جسدتها شخصية علي الحوات «الشاب الطيب الذي شذ عن إخوته الثلاثة، وعن كثير من أقاربه، فابتعد عن طريق الضلالة. لم يسرق يوما. لم يكذب مرة. لم يتعد على أحد. لم يثلب في عرض، أو يتعرض بسوء لغيره. كان مثال الشباب المستقيم»[4].

وتيمة الخير هذه جسدتها كذلك شخصية "أوزوريس" في الأسطورة، فهو فخر الفتيات المحبوب، ذو الصفات المحمودة من كمال خلقه، وحميد سجاياه[5].

كما يتجلى هذا العنصر الأسطوري من خلال تيمة نزعة المساعدة التي تجسدت عند "علي الحوات"، ابن القرية البار، الذي سخر مهارته في الصيد لإطعام سكان القرية، حتى أصبح «يترقبه كل سكان القرية ليوزع عليهم باسما صيده، هذا سمكة، وذاك اثنين، وذاك ثلاثة وكلما مرّ به أحد، أو اقترب منه، سأله عن عدد أفراد أسرته، وأعطى له مقدارا من السمك»[6].

هذه التيمة نجدها في شخصية "أوزوريس" الذي «كان يعامل الفلاحين معاملة حسنة ويساعدهم على شق القنوات، ويخترع لهم الآلات التي تساعدهم في الزراعة»[7]. ويتمثل التجلي الثالث لهذا العنصر الأسطوري في تيمة التسامح في شخصيتي أوزوريس وعلي الحوات، هذا الأخير الذي عفا عن إخوته، رغم تنكيلهم به ، يجسد تسامحه في حواره الداخلي «أخي مهما كان الأمر، وعلي الحوات لا يمكن أن يحقد على أخيه، أبدا، أبدا»[8] ويتجلى أيضا في قوله لأحد إخوته: «لقد عقدت

العزم أن لا أتعرض لكم بسوء إطلاقا. أنتم إخوتي أولا وقبل كل شيء، فكيف لي أن أضركم؟»[9] وهنا يلتقي مع أوزوريس، الذي كان متسامحا، عفوا، حين «استتب الأمر وردّ كرامة زوجته "إزيس" وعفا عن "ست"»[10].

كما يتجلى هذا العنصر الأسطوري في تيمة التنكيل وتمزيق الأعضاء، فعلي الحوات «طعن في أعز ما يملك. لقد حزت يده اليمنى حتى المرفق. إن فقد علي الحوات يده اليمنى، فماذا يبقى له ليكون حواتا؟»[11]. ويتكرر "موتيف" البتر، حين «استيقظ علي الحوات، على الضجيج، وعلى الألم في ذراعه اليسرى. قلبه يتعسر، وشيء كالحز بالسكين أو الكي بالنار ينبعث من ذراعه اليسرى»[12]، ثم «انتزع لسانه»[13]، وكذا حين صاح أخاه "جابر": «فالتفقأ عيناه»[14]. وهي التيمة نفسها التي نجدها في أسطورة "أوزوريس" الذي تعرض للتنكيل من طرف أخيه "ست" الذي «فتك به (أوزوريس) من جديد وقطع جسده إربا إربا، إلى أربعة عشر قطعة، وأرسل أتباعه يلقون كل جزء من جسم "أوزوريس" في إقليم من أقاليم مصر الأربعة عشر»[15]. وذلك بعد أن «قطع جهاز التناسل لأوزوريس ودفنه في مكان لا يعمله إلا هو»[16].

ويتجلى العنصر الأسطوري كذلك في تيمة المرأة، إذ عندما رحل علي الحوات من قرية التصوف، وجعل من العذراء القائمة على أمور القرية إلى حين عودته «ستتولى العذراء قيادتهم عندما أعود، أساعدها على ذلك»[17].

وهي التيمة ذاتها التي نجدها في الأسطورة إذ «عندما ذهب أوزوريس في رحلة الشرق ليعلّم الناس ما علمه للمصريين أناب عنه في الحكم زوجته "إزيس"»[18].

كما يتجلى هذا العنصر الأسطوري في تيمة الثأر والانتقام، حيث أرادت القرى السبع الانتقام لعلي الحوات، فقرية التصوف «لم تبق قرية تصوف. لقد أضحت قرية الثأر للشرف سنثأر لعذرانا. سنثأر لأعيننا، سنثأر ليدك»[19]. وجاء في الرواية كذلك: «أعلنوا في ساحة قرية التحفظ أنه لن يهدأ لهم بال حتى ينتقموا لعلي الحوات»[20]. وتتجلى تيمة الثأر في أسطورة أوزوريس، إذ جسدها حوريس الذي استطاع أن ينتقم لأبيه بخوضه حربا ضد عمه "ست" وقتله وأصبح هو الملك الحاكم[21].

لقد استطاع الطاهر وطار أن يطوّع هذا العنصر الأسطوري بما يخدم رؤيته الفنية، وتبدو هذه المطاوعة في شخصية "علي الحوات"، الرجل الشعبي، البسيط، اليتيم

مقابل شخصية الملك "أوزوريس"، الإله المقدس. كما نجد مطاوعة عدد الإخوة: فهم ثلاثة (مسعود وسعد وجابر) بالنسبة لعلي الحوات، وواحد (ست) بالنسبة لأوزوريس. كما طاوع الكاتب الدوافع إلى التنكيل، فهو سياسي، سلطوي، شخصي، عائلي عند "ست" الذي طمح إلى الحكم، أما عند علي الحوات، فهو إجرامي للتخلص من أي خيط قد يؤدي إلى اكتشاف أمرهم.

كما تبدو المطاوعة جلية في موت "أوزوريس" بعد تقطيعه، وبقاء "علي الحوات" على قيد الحياة، لأن رؤية المبدع لا تريد لهذا البطل الشعبي، الذي يحمل أحلام الجماهير العريضة أن يقبر، وتقبر معه هذه الطموحات المشروعة؛ فبقاؤه حيا معناه بقاء بصيص من الأمل، الذي ينير طريق أي مشروع ثوري، هادف إلى التغيير.

وفيما يخص تيمة الدموع والبكاء ، فقد تم تطويعها حين بكى "علي الحوات" بنفسه، إذ «يقال إن دموع علي الحوات أغرقت القصر في فيضان»[22]. أما الدموع في أسطورة "أوزوريس"، فكانت دموع زوجته، إذ«كلما بكت "إزيس" فاضت مياه النيل»[23].

ونجد مطاوعة أخرى تتمثل في مكانة المرأة حيث تمثل العذراء المرأة البسيطة، التي تعيش في قرية التصوف، وبقيت مشروع زوجة لعلي الحوات، بينما تعتبر "إزيس" في الأسطورة الزوجة الفعلية لأوزوريس، وهي ملكة وإلهة.

كما يبدو التوظيف العكسي للعنصر الأسطوري في كون شخصية "أوزوريس" ترمز إلى السلطة التي تلتحم بالجماهير، لتحتضن آمالها وآلامها، بينما تسلك شخصية علي الحوات سبيلا معاكسا، إذ ترمز إلى البطل الشعبي الذي يخرج من رحم الجماهير ليلتحم بالسلطة مضحيا بسعادته الشخصية المتمثلة في التأجيل المستمر لزواجه بالعذراء «أنا موافقة على تأجيل العرس مرة أخرى حتى نفرغ من مسألة المسائل»[24].

وتبدو المطاوعة جلية في جعل تيمة الثأر تتحول من الدافع العائلي السياسي، المرتبط باسترجاع السلطة المنتزعة، إلى دافع جماعي، إذ ثارت الجماهير ضد السلطة تعاطفا مع علي الحوات، البطل الملحمي، الذي كان حاملا لأحلام هذه الجماهير، وهو ما يعزز فكرة ارتباط اللاوعي الجمعي بأسطورة البطل باعتبار أنه صورة من صور النماذج الأولى للتفكير (Archétypes).

ثانيا – التراث الديني:

ونجد بطل الرواية يرتقي إلى مصاف الأنبياء، ولهذا الارتقاء إلى مصاف الأنبياء، الذي أشرنا إليه، والذي أسهم فيه العنصر الأسطوري، تفسير من خلال تيمة الرؤيا والحلم فهذه التيمة تجلت في النص الروائي من خلال رؤية قرية التصوف لعلي الحوات في منامهم، إذ «في ليلة واحدة، يا علي الحوات، رآك جميع أهل القرية في منامهم، حلموا بك حلما واحدا، يا علي الحوات»[25]. وهي التيمة التي تجسدت في قصة سيدنا يوسف – عليه السلام –، فقد جاء في التوراة «أني قد حلمت حلما أيضا وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدة لي. وقصه على أبيه وعلى إخوته، فانتهره أبوه وقال ما هذا الحلم الذي حلمت، هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك في الأرض. فحسده إخوته. وأما أبوه فحفظ الأمر»[26]. كما ورد في القرآن الكريم قوله تعالى **﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾**[27].

ويضاف إلى هذه التيمة موتيف تحقق الحلم الذي تجلى في النص الروائي عندما تحقق حلم قرية التصوف، إذ أن «كل الأقاويل تجمع على أن القصر انتهى وأن حلم المتصوفين تحقق»[28]. فنجد هذه التيمة (تحقق الحلم) في التوراة «فدخل يهوذا وإخوته إلى بيت يوسف وهو بعد هناك. ووقعوا أمامه على الأرض»[29]، وكذا في القرآن الكريم **﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ، قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾**[30].

ونصادف تجليا آخر متمثلا في تيمة الإخوة الأشرار، إذ نجد في الرواية أن إخوة علي الحوات «عاقبوه شر عقاب، انتزعوا منه يديه، حتى تنتزع عنه صفته، وانتزعوا لسانه حتى لا يقول لكم الحقيقة التي رآها»[31]. وهي تيمة مستمدة من القصة ذاتها (قصة يوسف)، فقد جاء في الكتاب المقدس «لما جاء يوسف إلى إخوته إنهم خلعوا عن يوسف قميصه، القميص الملون الذي عليه. أخذوه وطرحوه في البئر»[32]. أما في القرآن الكريم، فقد جاء على لسان إخوة يوسف **﴿اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾**[33].

كما تتجلى تيمة أخرى متمثلة في العفو والتسامح، حيث صفح علي الحوات عن إخوته رغم كل ما لقيه منهم «لقد عقدت العزم على أن لا أتعرض لكم بسوء إطلاقا . أنتم إخوتي أولا وقبل كل شيء فكيف لي أن أضركم»[34]. وهي تيمة تلتقي

مع عفو يوسف عن إخوته وتسامحه معهم، إذ جاء في التوراة «ثم وقع على عنق بنيامين أخيه وبكى. وبكى بنيامين على عنقه. وقبل جميع إخوته وبكى عليهم، وبعد ذلك تكلم إخوته معه»[35] كما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿**قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾[36].

ولقد تمت مطاوعة تيمة الحلم هذه من خلال توظيفها توظيفا عكسيا: فعلي الحوات لم يكن صاحب الحلم، بل كان موضوعا لهذا الحلم، بخلاف حلم سيدنا يوسف، الذي كان صاحب الحلم وموضوعه في آن واحد.

كما نجد مطاوعة أخرى تتمثل في اختزال عائلة يوسف في النص الروائي إلى الثلث: فأبناء يعقوب اثنا عشر فردا، أما عدد عائلة علي الحوات فهو أربعة. إلى جانب تطويع موتيف التوبة، إذ نجد أن إخوة علي الحوات لم يتوبوا في النهاية، بل ازدادوا قساوة وتعنت، وهو ما يجسده موقف جابر«فلتفقأ عيناه. أيستشعر أحد الظلم في سلطتي؟ إن هذا لا يكون إلا من الأعداء»[37]. أما إخوة يوسف، فتابوا وندموا على ما فعلوه بيوسف، إذ نجد في القرآن قوله تعالى ﴿**قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ**﴾[38]. ولا نجد أثرا لمطاوعة تيمة التسامح، بل حافظت على عناصرها كما هي في المصْدر الأسطوري:

ونظرا إلى كون المطاوعة في تيمة تحقيق الحلم والعفو لم تكن كبيرة، إذ ظلت باهتة، فقد أثر ذلك على الإشعاع الذي لم يكن كبيرا على النص الروائي بفعل التوظيف الجزئي للعنصر الأسطوري وغير المتصرف فيه بالتحوير أو التشويه أو الزيادة أو النقصان.

وإذا كان النص قد استثمر تيمة الحلم وتحقيقه، والتسامح في قصة يوسف وإخوته، فإنه وظف تيمة المعجزة كخاصية من خصائص الأنبياء، وهو ما يؤكد ما ذهبنا إليه سالفا من كون شخصية علي الحوات قد ارتقت، بفضل تضافر عناصر أسطورية إلى مرتبة الأنبياء.

ونجد من بين معجزات الأنبياء، معجزة انفلاق البحر. فعلي الحوات «ضرب بقصبته الماء سبع ضربات، فانشق من حوله وبان القعر»[39]. وهي تيمة لا يختلف اثنان حول مصدرها الديني، فقد جاء في التوراة «فقال الرب لموسى ما لك تصرخ إلي. قل

لبني إسرائيل أن يرحلوا. وارفع أنت عصاك ومد يدك على البحر وشقه. فيدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة»[40]. كما جاء في القرآن قوله تعالى ﴿**فَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ، فَانفَلَقَ فَكَانَ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾[41].

ووردت هذه التيمة دون مطاوعة كبيرة، إذا ما استثنينا عدد الضربات، إذ بلغت سبعا عند علي الحوات، مقابل ضربة واحدة عند سيدينا موسى – عليه السلام – إلى جانب منطقة الضرب: فهي واد عند علي الحوات، وبحر بالنسبة لموسى، وعليه لم يكن لهذه التيمة إشعاع كبير.

ونجد تجليا آخر لهذه التيمة المتمثلة في المعجزات، إذ«يقال أن السمكة، عندما أنزلها علي الحوات راحت تصوت كالأفعى، وتخرج من لسانها شواظا لازورديا، لفعتهم الحرارة الخارقة، فولوا هاربين، ومر علي الحوات بسمكته المسحورة»[42].

وتحيلنا كلمات "الأفعى"، و"لفعتهم"، و"المسحورة" إلى معجزة دينية أخرى تمثلت في العنصر الأسطوري ، إذ جاء في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿**قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى، فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى، قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى**﴾[43]. وجاء أيضا ﴿**بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى، قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى، وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُواْ، إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى**﴾[44].

ويلتقي العنصر الأسطوري بالنص الروائي في ظاهرة السحر وتحول العصا والسمكة إلى أفعى، ولكن تكمن المطاوعة في العنصر الذي تحول إلى أفعى: فهو عصا في العنصر الأسطوري وسمكة في الرواية.

وما يعزز ارتقاء الشخصية إلى مصاف الأنبياء، تيمة الدموع الغزيرة، إذ أن «دموع علي الحوات أغرقت القصر في فضيان، وأن جدران القصر وكل صخوره تحولت إلى ملح وراحت تذوب وتذوب»[45]. ولهذه التيمة امتداد في التراث الديني، إذ روي عن النبي داود – عليه السلام – أنه «بكى أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه»[46]. وقد وظف الكاتب هذا العنصر الأسطوري عكسيا، إذ أن دموع "علي الحوات" كانت عنصر هدم وفناء، بينما كانت دموع داود عامل نبات وخصب.

لبني إسرائيل أن يرحلوا. وارفع أنت عصاك ومد يدك على البحر وشقه. فيدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة»[40]. كما جاء في القرآن قوله تعالى ﴿**فَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ، فَانفَلَقَ فَكَانَ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾[41].

ووردت هذه التيمة دون مطاوعة كبيرة، إذا ما استثنينا عدد الضربات، إذ بلغت سبعا عند علي الحوات، مقابل ضربة واحدة عند سيدينا موسى – عليه السلام – إلى جانب منطقة الضرب: فهي واد عند علي الحوات، وبحر بالنسبة لموسى، وعليه لم يكن لهذه التيمة إشعاع كبير.

ونجد تجليا آخر لهذه التيمة المتمثلة في المعجزات، إذ«يقال أن السمكة، عندما أنزلها علي الحوات راحت تصوت كالأفعى، وتخرج من لسانها شواظا لازورديا، لفعتهم الحرارة الخارقة، فولوا هاربين، ومر علي الحوات بسمكته المسحورة»[42].

وتحيلنا كلمات "الأفعى"، و"لفعتهم"، و"المسحورة" إلى معجزة دينية أخرى تمثلت في العنصر الأسطوري ، إذ جاء في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿**قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى، فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى، قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى**﴾[43]. وجاء أيضا ﴿**بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى، قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى، وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُواْ، إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى**﴾[44].

ويلتقي العنصر الأسطوري بالنص الروائي في ظاهرة السحر وتحول العصا والسمكة إلى أفعى، ولكن تكمن المطاوعة في العنصر الذي تحول إلى أفعى: فهو عصا في العنصر الأسطوري وسمكة في الرواية.

وما يعزز ارتقاء الشخصية إلى مصاف الأنبياء، تيمة الدموع الغزيرة، إذ أن «دموع علي الحوات أغرقت القصر في فضيان، وأن جدران القصر وكل صخوره تحولت إلى ملح وراحت تذوب وتذوب»[45]. ولهذه التيمة امتداد في التراث الديني، إذ روي عن النبي داود – عليه السلام – أنه «بكى أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه»[46]. وقد وظف الكاتب هذا العنصر الأسطوري عكسيا، إذ أن دموع "علي الحوات" كانت عنصر هدم وفناء، بينما كانت دموع داود عامل نبات وخصب.

وآخر تيمة تتعلق بتيمة الدعاء لاستجلاب العقاب الجماعي، وتتجلى هذه التيمة في حلول العقاب بقرية بني هرار، التي «دعا عليها نبي لم يتمكن من تبليغ رسالته ألا يسكنها غير لقيط أثيم، هرب من قومه، فيه الرذائل السبع والعيوب السبع»[47]. وهي تيمة ذات مصدر ديني، مرجعه دعاء سيدنا نوح – عليه السلام – على قومه، قال تعالى ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُواْ إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا**﴾[48].

وتجلت هذه التيمة الأسطورية دون مطاوعة تذكر، لأن الدعاء بالعقاب سببه واحد في النص وفي المصدر، وهو الانحراف والضلالة، واستحالة تبليغ الرسالة على النبي.

ثالثا – التراث الشعبي:

لم تتميز شخصية من شخصيات المجتمع الإسلامي – بما أحيطت من دراسات وجدل وبما لاحقها من مبالغات – كما امتازت شخصية "علي بن أبي طالب" – رضي الله عنه – ولا أدل على ذلك من عدد الأحاديث المروية عنه والمنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، والتي بلغت نحو ستمائة وستة وثمانين (686) حديثا ، لم يصح منها سوى خمسون حديثا[49].

ومما زاد هذه الشخصية اهتماما بلغ درجة التقديس ما أحاطته فرق الشيعة به من تعظيم مفرط مبني على خلفية أولوية هذه الشخصية بالحكم والخلافة، من منطق أفضلية الإمام علي بعد الرسول (صلى الله عليه وسلم).

وللسائل أن يسأل: لماذا اعتبرت شخصية الإمام علي أسطورة يمكن تتبعها في مقاربة النص الروائي كعنصر أسطوري؟ لحقيقة أن هذه الشخصية هي شخصية متحققة الوجود تاريخيا، لكنها شخصية تأسطرت بفعل الزمن والجدل الديني والسياسي، واختلاطها بسير الأبطال والملاحم الشعبية حتى بلغت درجة من التهويل والتقديس ، أضفاه عليها بعدها الديني، إذ اتخذت القصص التي نسجت حولها طابع التسليم المطلق، مما ساهم في تأسطرها.

ولقد أدى إقرارنا بتأسطر هذه الشخصية الدينية التاريخية، إلى محاولة تتبع تجلياتها كعنصر أسطوري داخل نص "الحوات والقصر". ولعل أول تجلٍ لهذا العنصر الأسطوري يظهر منذ العنوان (الحوات والقصر)، وهو عنوان بارز يشغل حيزا قرائيا،

ويمارس إغراء على القارئ، ولا يخفى ما أحيط به العنوان – في أي عمل أدبي – من اهتمام الدراسات النقدية الحديثة باعتباره نصا موازيا (para-texte) وأول عتبة لولوج عالم النص.

فكلمة الحوات تشير إلى زمرة اجتماعية متعلقة بمهنة الصيد، وهي الصفة التي نجدها لصيقة باسم بطل الرواية "علي الحوات". هذا الاسم العلم يعتبر أول تجلٍ للعنصر الأسطوري فهو محرك للذاكرة، محفز للقراءة والتأويل، ولا يقف هذا العنصر الأسطوري عند اسم الشخصية المحورية، بل يتعدى ذلك إلى صفاتها التي يمكن اعتبارها عناصر أسطورية أبرزها تيمة المحبة والتقديس التي تبلغ درجة التأليه.

ففي النص الروائي، تتجلى هذه التيمة في سكان إحدى القرى عند مخاطبتهم لعلي الحوات: لقد نصبوك في قلوبهم وليا من أولياء الله، بل رسولا من رسله، بل إلها من الآلهة أنت وليهم، وأنت نبيهم، وملكهم، وسلطانهم، وإلههم»[50]

وهي التيمة التي ألحقت بشخصية الإمام علي بن أبي طالب من قبل بعض الفرق الشيعية التي كانت تعتقد أنه معصوم، وأنه إله، إذ «حل في علي جزء إلهي، واتخذ تجسده فيه، وبه كان يعلم الغيب. وبه كان يحارب الكفار، وله النصرة والظفر. والرعد صوته، والبرق تبسمه»[51].

كما تتولد عن تيمة التقديس الولاء المطلق والطاعة العمياء التي تجلت في شخصية "علي الحوات" التي اكتسبت ولاء القرى السبعة بما فيها قرية "بني هرار" التي «انحنت لأول مرة في تاريخها، و لم يكن الانحناء لأحد ، سوى لعلي الحوات»[52]، وهي التي ارتبطت بالعنصر الأسطوري المتمثل في الإمام علي الذي يعد ، عند الكثير من الشيعة «أفضل الخلق في الآخرة وأعلاهم منزلة في الجنة ، وأفضل الخلق في الدنيا ...»[53].

ويتجلى هذا العنصر الأسطوري في الرواية كذلك من خلال النور الذي يحيط بشخصية "علي الحوات"، الذي كان «النور يشع من وجهه، الحنان ينبعث من عينيه، البراءة تتراقص على جبينه ووجنتيه»[54]. وبالإضافة إلى كل ذلك «هناك من يرى فيه (علي الحوات) أصل النور الشعشعاني»[55]. وتيمة النور هذه يمكن الوقوف عليها، فيما كانت تعتقد بعض فرق الشيعة من نزول للنور من السماء ليشمل آل البيت بما فيهم علي وأبناؤه، وبخاصة الفرقة الشيعية البيانية، التي تعتقد أن قطعة من

النور تنتقل من آدم إلى علي بوساطة الأنبياء والصالحين وينتقل هذا النور إلى الأئمة حتى آخر العالم[56].

كما يتجلى هذا العنصر الأسطوري في النص من خلال تيمة المناصرة، إذ ناصرت القرى السبع علي الحوات عندما نادى أحدهم «علي الحوات يستنصر، أنصزوه»[57]. وموتيف المناصرة هذا مرجع في العنصر الأسطوري: فالشيعة نصرت الإمام علي ضد معاوية فحاربت الأمويين معه[58].

ويتجلى هذا العنصر الأسطوري من خلال تيمة العصمة من الخطأ، فعلي الحوات « ابتعد عن طريق الضلالة، لم يسرق، لم يكذب مرة، لم يتعد على أحد، لم يثلب في عرض أو يتعرض بسوء لغيره ، كان مثال الشباب المستقيم»[59]. وتتجلى هذه التيمة في شخصية علي بن أبي طالب المعصوم، هو ومن بعده، إذ «لا يجوز الخطأ عليهم ولا يصدر منهم إلا ما كان صوابا، ومنها رفع مقام علي عن غيره من الصحابة حتى أبي بكر وعمر»[60].

أما عن كيفية تطويع الكاتب لهذا العنصر الأسطوري، فيتجلى في البعد الاجتماعي للشخصيتين: فالإمام علي هو صحابي، وخليفة راشد، وقائد عسكري ، وإمام فقيه ، وابن عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وزوج ابنته فاطمة. أما علي الحوات، فهو شخص مجهول النسب، حوات بسيط، له ثلاثة إخوة أشرار، مجرمين، نكلوا به شر تنكيل، وهي عناصر لا نجدها في شخصية الإمام علي كرم الله وجهه.

كما تختلف الشخصيتان في نوعية الأهداف، التي عملت لأجلها كل شخصية، فشخصية الإمام علي حاربت لنصرة الدين الإسلامي، والتمكين له. أما علي الحوات، فقد حمل الهم الاجتماعي كقضية، إذ كان يناضل من أجل العدالة والمساواة.

ويظهر الخلاف أيضا في مصير الشخصيتين: فالإمام علي مات مطعونا غدرا، أما علي الحوات، فرغم ما لقيه من تنكيل، فقد تضاربت حول نهايته الآراء، وإن كانت نهايته هي انتصار القرى السبع.

أما عن كيفية إشعاع هذا العنصر الأسطوري على النص الروائي، فقد تجلت في جعل البطل "علي الحوات" ينتقل من بطل روائي إلى بطل شعبي ملحمي، ويسمو إلى مراتب الأنبياء والصالحين، كما جعل الرواية تتداخل مع الملاحم الشعبية وسير

الأبطال، بما يكتنفها من أجواء أسطورية خلقها إشعاع هذا العنصر الأسطوري الذي ساهم في البناء الدرامي لأحداثها، وهذا ما يقر به الروائي نفسه في أحد حواراته: «أما فيما يخص "علي الحوات" فكان من جملة الأبعاد التي وضعتها لشخصيته هي ربطه بتاريخنا ، وبالتالي محاولة اقتدائه بشخصية الإمام علي بن أبي طالب. وحتى في مسار الرواية، ينهزم "علي الحوات" كل مرة مثلما انهزم علي بن أبي طالب، ولكن الهزيمة لعلي الحوات كانت الانتصار بالنسبة للقرى السبع»[61].

الخاتمة:

لقد أسهمت عناصر أسطورية كثيرة مجتمعة في بناء شخصية البطل الأسطوري، فالتحمت عدة تيمات في تحديد ملامح هذا البطل كالتضحية، والتسامح، وتحمل الآلام، ودعم القوى الغيبية، والمعجزات، والخوارق.وهو تشكيل أسطوري متشابك ومعقد، جعل البطل يسمو إلى مرتبة الكمال. وعليه، كان «علي الحوات يرمز إلى شريحة من الأفراد القادرين الذين يمثلون البطل المتسامي، الذي يتجاوز ذاته، وكوابح محيطه لنشر القيم الإيجابية في عصره»[62].

وهكذا، أصبح علي الحوات البطل المثالي الذي حلمت به جل الجماعات البشرية، ولا زالت تحلم به هنا وهناك ، بأسماء مختلفة ولكن بجوهر واحد. إنه ذلك الإنسان العادل الذي يتجرد من كل العيوب والرذائل ويضحي بنفسه من أجل أخيه الإنسان، امتثالا لعقيدة أو تحقيقا لقناعة.

المراجع:

1 - Max Bilen , littérature et initiation, dictionnaire des mythes littéraires, p. 966.

2 - Ann-Deborah Levy-Bertheray, Isis, dictionnaire des mythes littéraires, p. 818.

3 – كمال الحناوي، أساطير فرعونية، منشورات المكتبة المصرية، صيدا بيروت، ص 3.

4 – الرواية، ص 17.

5 – محمد عصمت، الكاتب العربي والأسطورة.

6 – الرواية، ص 18.

7 – محمد عصمت، الكاتب العربي والأسطورة، ص 25.

8 – الرواية، ص 225.

9 – الرواية، ص 248.

10 – محمد عصمت، الكاتب العربي والأسطورة، ص 25.

11 – الرواية، ص 134.

12 – الرواية، ص 227.

13 – الرواية، ص 243.

14 – الرواية، ص 264.

15 – محمد عصمت، الكاتب العربي والأسطورة، ص 28.

16 – المرجع نفسه، ص 28.

17 – الرواية، ص 74.

18 – محمد عصمت ، الكاتب العربي والأسطورة، ص 25.

19 – الرواية، ص 217.

20 – الرواية، ص 254.

21 – محمد عصمت حمدي، الكاتب العربي والأسطورة، ص 28.

22 – الرواية ، ص 267.

23 – محمد عصمت حمدي، الكاتب العربي والأسطورة، ص 27.

24 – الرواية، ص 236.

25 – الرواية، ص 63.

26- الكتاب المقدس، العهد القديم، التكوين، الإصحاح السابع والثلاثون.

27 – يوسف: 04.

28 – الرواية، ص 268.

29 – الكتاب المقدس، العهد القديم، التكوين، الإصحاح الرابع والأربعون.

30 – يوسف: 100.

31 – الرواية، ص 245.

32 – الكتاب المقدس، العهد القديم، التكوين، الإصحاح السابع والثلاثون.

33 – يوسف: 09.

34 – الرواية، ص 248.

35 – الكتاب المقدس، العهد القديم، التكوين، الإصحاح الخامس والأربعون.

36 – يوسف: 92.

37 – الرواية، ص 264.

38 – يوسف: 97.

39 – الرواية، ص 206.

40 – الكتاب المقدس، العهد القديم، الخروج، الإصحاح الرابع عشر.

41 – الشعراء: 63.

42 – الرواية ، ص 59.

43 – طه: 19 – 21.

44 – طه: 66 – 69.

45 – الرواية، ص 69.

46 – زكي مبارك، التصوف الإسلامي، منشورات المكتبة المصرية، بيروت، ص 95.

47 – الرواية، ص 54.

48 – نوح: 26، 27.

49 – ابن حزم (أحمد بن حزم الظاهري)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، المجلد الثالث، ج 4 – 5، دار المعرفة، بيروت، ط 2، 1975، ص 137.

50 – الرواية، ص 66.

51 – أحمد أمين، فجر الإسلام، ط 10، دار الكتاب العربي، بيروت 1969، ص 269.

52 – الرواية، ص 151.

53 – أحمد أمين، فجر الإسلام ، ص 268.

54 – الرواية، ص 62.

55 – الرواية، ص 153.

56 - Mokhtar Nouiouat, l'inspiration shiite chez le poète el Souyyad el Himyarri, thèse de doctorat d'état, Sorbonne Paris IV, Paris, p 612.

57 – الرواية، ص 192.

58 – أحمد أمين، فجر الإسلام ، ص 275.

59 – الرواية، ص 17.

60 – أحمد أمين، فجر الإسلام ، ص 268.

61 – عبد العالي زراقي، حوار مع الطاهر وطار ، مجلة الجيل، عدد 4، أفريل 1988، ص 88.

62 – إدريس بوذيبة، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، منشورات جامعة منتوري قسنطينة 2000، ص 234.